

أسطورة غياب الصراع الاجتماعي: لا يشكل التركيز على نواقص المجتمعات الثورية سوى جانب واحد- الجانب الدولي - من مشروعات «توجيه العقول» لحجب واقع السيطرة الاستغلال عن الجماهير. وفي مجال تصويرهم للساحة الداخلية ينكرون في الوعي إنكارا مطلقا وجود الصراع الاجتماعي. وقد يبدو ذلك في ظاهر الأمر مهمة مستحيلة التحقيق. فالعنف رغم كل شيء «أمريكي مثله مثل فطيرة التفاح» ليس في الواقع فحسب بل في الخيال أيضا: ففي السينما والتلفزيون وعبر موجات إذاعة تخصص يوميا لسيناريوهات العنف مساحة مذهلة فكيف يتفق هذا الكرنفال من الصراع والعنف مع الهدف الأساسي الذي يري وسائل الإعلام والتمثيل في تقديم صورة للانسجام والتآلف الاجتماعي؟ الواقع أنه تناقض يتم حله بسهولة. فالصراع كما تصوره الأجهزة القومية لصنع الأفكار والتوجهات العامة هو في الأساس مسألة فردية سواء في تجلياته أو في أصوله. إذ إنه لا وجود أصلا للجذور الاجتماعية للصراع في رأي مديري أجهزة الثقافة والإعلام. صحيح أن هناك «أشخاصا طيبين» و«أشخاصا أشرارا» إلا أن عملية تحديد هوية الدور (باستثناء تلك الحالات التي صطبغت بطابع طقسي أو طي مثل أفلام الغرب الأمريكي والتي يمكن تقبلها بوصفها سيناريوهات تحكي عن الضي) يتم الفصل بينها وبالفئات الاجتماعية المؤثرة. ولقد لقي السود والسمرة والحمرة والصفرة والأقليات العرقية الأمريكية الأخرى أقل قدر من الاهتمام في الإبداعات الثقافية المصنوعة. ومع ذلك فهي أقليات استغلالية من جانب كل قطاعات الأغلبية البيضاء بدرجات متفاوتة. كذلك لم يلق الانقسام الاجتماعي الكبير في الأمة إلى عامل وصاحب عمل- إلا في حالات استثنائية محدودة- أي حظ من الدراسة أو الاهتمام. بل ظل الاهتمام منصبا على موضوعات أخرى تتمثل بوجه عام في مشكلات القطاع الأوسط من السكان الذي يسعى جاهدا للعودة إلى أعلى السلم الطبقي تلك الفئة التي يفترض انتماء كل إنسان إليها. ولا تقل الإحجام عن الاعتراف بالواقع العميق للصراع في النظام الاجتماعي وعن محاولة تفسيره لا مثل تطورا حديثا في ممارسات أجهزة الثقافة والإعلام بل هو نهج متفق عليه ومعمول به منذ البداية. فأنت لا تصادف إلا نادرا وسط هذه أداة الهائلة السارية في دائرة الإعلام القومية إبداعا ثقافيا حقيقيا يعترف بهذا الواقع. والواقع أن تهاوة وسطحية معظم البرامج وخاصة ما يتعلق منها بتغطية الأحداث الاجتماعية الجارية تعودان أساسا إلى قصور وسائل الإعلام اعتاد عن التسليم بوجود الصراع الاجتماعي وعن تحديد طبيعة أسس هذا الصراع. وليس الأمر غير مقصود أو افتقار إلى الكفاءة الإبداعية بل هو نتيجة مترتبة على سياسة متعمدة يقبلها معظم السيطرين على أمور الثقافة دون تحفظ. إن سيطرة النخبة تقتضي تجاهل أو تحريف الواقع الاجتماعي. فالدراسة المخلصة والناقشة الجادة للصراع الاجتماعي لن تؤدي إلا إلى تعميق وتكثيف مقاومة الظلم الاجتماعي. وتصاب المجموعات والشركات ذات النفوذ الاقتصادي القوي بتوتر بالغ وفوري إذا ما لفت «Variety's» الأنظار للممارسات الاستغلالية التي يشاركون فيها. وقد وصف ليس براون محرر باب التلفزيون مجلة «فاريتي» حادثة من هذا النوع. فقد احتجت شركة «كوكاكولا للأغذية» واتحاد فلوريدا للفاكهة والخضراوات بشدة على إذاعة الفيلم بعدم عرض الفيلم N. B. C. التسجيلي التلفزيوني «هاجر» الذي ركز على المهاجرين العامل في جني الفواكه في فلوريدا نظرا لأنه «متحيز». ب. إس. و«إيه. ب. سي» (١٠). فعلى الصعيد التجاري البحث يؤدي عرض القضايا الاجتماعية إلى لذا يحرص رعاة البرامج التلفزيونية أو لولوها عملا بدأ السلامة ومن أجل الاحتفاظ بأكثر عدد من جمهور «شاهدين» على استبعاد أي برنامج يشتبه في احتوائه على مادة «خلافية» أو مثيرة للجدل. وهكذا نجد أن ألوان الترفيه والإنتاج الثقافي التي حققت نجاحا أكبر في الولايات المتحدة والتي لاقت قدرا أكبر من الدعم والدعاية من الجهاز الإعلامي هي الأفلام والبرامج التلفزيونية والكتب والتسليبية الجماهيرية (ديزني لاند على سبيل المثال) التي قد تقدم ما هو أكثر من تلك الحصة المقررة من العنف إلا أنها لا تتبنى بأي شكل قضية الصراع الاجتماعي. والواقع أن هذه الفاهيم هي بالفعل أشياء خطيرة- بالنسبة للمضطهدين- من حيث إن إدراك مدلولاتها يشكل ضرورة للنشاط التحرري (١١). عندما انفجر الصراع الاجتماعي في أواخر الستينيات وأصبح الاحتجاج ضد الحرب الفيتنامية وظاهرات طالبة بالتغيير الاجتماعي حدثا يوميا تقريبيا ارتبك الجهاز الإعلامي لفترة وجيزة لكن سرعان ما استعاد توازنه. وقبل أن ينتهي العقد ازدحمت شاشات السينما في طول (shaft) البلاد وعرضها بطوفان من أفلام «الشباب» وأفلام السيناريوهات السوداء». وأصبح إنتاج أفلام ومسلسلات مثل والتي أسماها الإمام أميري بركة «الدمى الزنجية الحديثة»- تجارة رابحة. (Hit Man) (و) Black Gunn (و) Super - Fly (و) وحققت تلك العروض وصية جيم براون التي أنتجها أفلام السود: إن أسلوب التعامل الوحيد الذي يحقق النجاح هو التعامل مع السينما بوصفها صناعة بوصفها نشاطا تجاريا. إن على السود أن يكفوا عن الهتاف بالشعار: «أسود» وأن يبدأوا في

(الهدف بشعار «التجارة» ١٢)